'أفاق المستقبل' 5: إستراتيجية العمل السياسي للمرحلة القادمة

24-8-2004

يبدو أهل السنة اليوم بمثابة الحالة المتقدمة في وعي المجتمع العراقي بطبيعة المرحلة ومصادر التهديد الخطيرة التي تحيق بهم، وطبيعة المشروع الصهيوني الذي يختبيء خلفه، وعلى الرغم من نجاح السنة في اختراق كثير من المخططات الأمريكية، وتحقيق انتصارات سياسية وتاريخية وعسكرية عميقة ومؤثرة، إلا أن الولايات المتحدة ما زالت تمسك بكثير من أدوات الصراع وأوراقه، وأبرزها الورقة الكردية، والتحالف مع الشيعة.

إن النموذج الأنسب للتعامل مع الاحتلال والحالة العراقية اليوم هو نموذج الاستراتيجية بعيدة المدى متعددة الأبعاد، والعمل السياسي

بقلم محمد سليمان

مواد ذات علاقة

'أفاق المستقبل' (4) : التحول في المخططات الأمريكية ودور أهل السنة

تساعد القراءة السابقة لخارطة القوى والتحولات الفاعلة في الواقع العراقي في ترشيد الرؤية السياسية لأية استراتيجية توضع من قبل السنة لصوغ دورهم في المجال السياسي العراقي، وتساهم كذلك في إدراك الخطوات المطلوبة والأولويات المفترضة والأهداف المرحلية التي يجب العمل على تحقيقها في إطار الوصول إلى الأهداف العليا.

ولقد أظهر السنة وعيا متميزا إلى الآن بطبيعة المرحلة، واستطاعوا – بامتياز – اختراق قواعد المعادلة التي حاولت الإدارة الأمريكية خلقها في العراق ومحاصرتهم من خلالها، وتمكنوا من الوصول إلى مرحلة متقدمة ومتميزة في تغيير إدارة الصراع، على النقيض مما كان يتوقعه عدد من الخبراء والمختصين في هذا الشأن.

وتبدو الخطوات المتقدمة التي قام بها السنة مؤخرا في عدة مجالات: القدرة على إيجاد مؤسسات وأدوات تعبير سياسية، وتجاوز الخلافات والظروف السيئة المحيطة بهم، ومن ذلك: تأسيس هيئة علماء السنة التي تتولى اليوم القيادة الروحية للمجتمع العراقي، إيجاد الخلايا المسلحة التي تدافع عنهم في مواجهة الاحتلال، وتؤدي المسؤولية الدينية والتاريخية والأخلاقية، البدء بعمليات توحيد سياسي لمختلف طوائف العمل السياسي الإسلامي في العراق من خلال اللجنة التحضيرية لمجلس الشورى، تولي العمليات الإغاثية والمجتمعية، وقيام الجمعيات السنية بأدوار خدماتية، مما يشكل نواة لعمل أهلي ومدني سيتعمق في المرحلة القادمة. تجنب الخلافات الطائفية والامتناع عن مجاراة قيادات الشيعة في النزعة الطائفية، والتأكيد على الوحدة الملية / الوطنية في مواجهة نزعات التمزق، الأمر الذي دفع عددا من الشيعة إلى مقابلة هذه السياسة بالمثل.

بيد أن هناك جملة من التحديات الكبرى التي تواجه السنة ودورهم السياسي، كما أن هناك الكثير من أدوات الصراع ما زالت في يد الولايات المتحدة، والتي تتمتع سياستها في العراق بالمرونة الشديدة والقدرة على تغيير المخططات بسرعة لمواجهة المتغيرات الجديدة، الأمر الذي يتطلب من السنة كذلك المرونة والذكاء في التعامل السياسي في إطار قواعد المصالح والمفاسد، كما أنه يتطلب التمييز بين الأهداف المرحلية القريبة والمتوسطة وبين الأهداف البعيدة، والتي تشكل إطارا حاكما للعمل السياسي السني.

في هذا السياق فإن الأهداف العليا للعمل السياسي السني تتمثل اليوم في تحرير العراق من الاحتلال، والحفاظ على وحدته وهويته الإسلامية وتجنب الانزلاق إلى حروب أهلية وصراعات طائفية، بالإضافة إلى الارتقاء به وتقويته وإيجاد النسق السياسي المتفق عليه والذي يحقق الشروط السياسية والشرعية ومن ذلك الحريات وحقوق الإنسان واحترام كرامته، مكافحة الفساد السياسي، توسيع قاعدة المشاركة في صنع القرار السياسي ..الخ .

بيد أن الوصول إلى هذه الأهداف يستدع وضع الاستراتيجية التي تواجه التحديات الحالية وتحقق أهداف مرحلية تساعد في الوصول في المحصلة إلى الأهداف النهائية. ومن التحديات الحالية التي تواجه العمل السياسي السني:

- قوة النزعة الطائفية والعرقية في العراق الأمر الذي يحول حاليا بين العراقيين وبين بناء خطاب إطار سياسي موحد ذات طابع فكري مشترك يقوم على مناهضة الاحتلال ومقاومته.
- قوة النزعة الانفصالية الكردية، واتفاق الأحزاب الكردية على الابتعاد والنأي عن مقاومة الوجود الأمريكي باستثناء بعض الجماعات الإسلامية كأنصار الإسلام.
- وجود اختلاف داخل التيارات الإسلامية السنية في الموقف من الاحتلال، على الرغم من وجود شبه اتفاق على رفضه ومطالبته بالخروج، إلا أن الحزب الإسلامي ما زال مشتركا في المجلس الانتقالي الحالي.
- غياب السند الإقليمي الفاعل للمقاومة المسلحة، وانعدام صور الدعم اللوجستي لها، الأمر الذي يضعف من قدراتها ومن حربها الثورية المسلحة ضد الاحتلال، ويحجب عنها العمق الجغرافي والسياسي المطلوب.

- التحول في الموقف الأمريكي من أهل السنة، وسعي الإدارة الأمريكية لشراء ولا ء العديد من شيوخ القبائل والقيادات الوسطى السابقة من الجيش العراقي، وأفراد من الطبقة السنية العربية الوسطى.
- عدم وضوح الهوية السياسية للمقاومة العسكرية العراقية بشكل قوي، وبقاء مستوى من التنوع والضبابية يحيط بها، طبعا الأمر مرتبط بالظروف الأمنية والسياسية العراقية.

بناء على قراءة المشهد السياسي العراقي والقوى الفاعلة فيه وفي ضوء التحديات التي تواجه السنة، وفي إطار الأهداف العليا للعمل السياسي، فإن الأهداف المرحلية والأولويات التي تستدعي تركيز الجهد عليها في المرحلة القادمة، هي:

* العمل على ترتيب البيت السني من الداخل:

من خلال تعزيز حالة الوحدة والتوافق الفكري، ومحاولة تشكيل نسق سياسي وفكري عام يجمع مختلف القوى السياسية، وخاصة الإسلامية، وذلك لتقوية تمثيل السنة، ومنع محاولات الاختراق الأمريكية الجارية على قدم وساق. في هذا السياق لا بد من استمرار محاولات اقناع الحزب الإسلامي بالانسحاب من مجلس الحكم، والبقاء بعيدا عن دائرة الاحتلال الأمريكي، والتأكيد على جمل محددة واضحة: تعريف الوجود الأمريكي بأنه احتلال غير مشروع وغير مقبول، التأكيد على حق الدفاع عن النفس المكفول بكافة القوانين الأرضية والشرعية، التأكيد على وحدة العراق ونبذ النزعات الطائفية، دعم المقاومة المسلحة وترشيدها. أما إذا أصر الحزب الإسلامي على البقاء في السلطة فلا بد من التواصل معه والتشاور لتنسيق المواقف السياسية وتحديد المصالح والمفاسد المرتبطة بتطور الأمور.

وتبدو الخطوات في هذا الاتجاه جيدة ومتقدمة من خلال مجلس الشورى، ومن خلال التواصل بين القوى السياسية، وكذلك وجود روابط بين المقاومة المسلحة وهيئة العلماء السنة، الأمر الذي لا بد أن يترشح عنه وحدة العمل السياسي السني، وتكامله.

* ترشيد المقاومة المسلحة:

يرتبط بالهدف السابق ضرورة ترشيد المقاومة العسكرية ودعمها، وتحديد أهدافها السياسية، الأمر الذي يساهم في توجيه العمليات العسكرية وخدماتها، وتكامل الأدوار بين الجهاد المدني السلمي والجهاد العسكري، وهنا لا بد من تعميق الصلة والروابط بين هيئة العلماء والعمل العسكري، وذلك لتجنب الوقوع في منزلقات أو فتاوى شرعية خاطئة تؤدي إلى أعمال تجر سخطا أو غضبا على السنة.

كما لا بد من بناء الخطاب الفكري والثقافي المساند للمقاومة المسلحة، والذي يشكل عمقا معنويا واجتماعيا وثقافيا لها، وتقع مسؤولية صوغ هذا الخطاب وبناء هذه الثقافة على العلماء والمثقفين العراقيين الإسلاميين والوطنيين.

يثار في هذا السياق موضوع العمليات المسلحة داخل المدن والأحياء الشعبية، واتخاذ المقاومة العسكرية لاستراتيجية المواجهات المباشرة مع الاحتلال داخل المدن، كما حدث في الفلوجة مؤخرا، وعلى الرغم من النصر الحقيقي والقوي الذي تحقق في الفلوجة إلى أن مقدار التضحيات والنزيف الذي بذل كان كبيرا، ومكلفا للغاية. ومن الواضح أن عملية خلق الصراع بين قوات الاحتلال والأهالي كانت هدفا وغاية من غايات المقاومة وتم بالفعل استدراج الاحتلال للدخول في صدام مع المجتمع، وعسكرة وجوده، وهذا أسلوب ثوري قوي وفاعل، ومعروف في الحروب والتقاليد الثورية، إلاّ أن هناك الكثير من الضوابط الشرعية والأخلاقية التي تحدد هذا الأسلوب، الأمر الذي يدفع مستقبلا إلى تحديد أكبر وأدق للمصالح والمفاسد من وراء المواجهات المسلحة، والتنسيق مع القوى والفعاليات الإسلامية السياسية على هذا الصعيد .

* البحث عن الشريك الوطني والإسلامي:

من الأولويات المطلوبة من أهل السنة وبالتحديد الحركات الإسلامية التي تتولى قيادتهم عملية البحث عن الشريك داخل الفئات الأخرى، وخاصة الشيعة، وذلك لمحاولة تجاوز الصراعات الطائفية وبناء القواسم الدينية المشتركة.

وفي إطار القراءة الحالية للواقع العراقي، والذي يشكل امتدادا لخبرة عقود طويلة من غياب التيار الوطني الناظم لشرائح المجتمع المختلفة، فإنه من الصعب تصور قيام هذا التيار مرة واحدة، وإنما يحتاج الأمر إلى وقت ومراحل وتطور كي نصل إلى حالة الاندماج الوطني والشعور الديني الوطني الموحد للجميع.

إلاّ أن القوى الإسلامية السنية مدعوة في البداية إلى إدراك خطورة هذا التحدي، والبحث على الجوامع الدينية والوطنية الموحّدة والتي تشكل موضع اتفاق، وعلى بناء جسور من الصلة والتنسيق مع الطوائف المختلفة والفئات المتعددة. وإذا كانت هناك مؤشرات واضحة على وجود حالة من التفاهم والتواصل، خاصة بعد الحوادث التي تهدف إلى إحداث حرب أهلية من خلال وجود خطاب "تسامحي" يدعو إلى تجاوز الآلام والارتفاع عليها وتفويت الفرصة لحدوث حرب أهلية؛ إلاّ أنّ هذا التواصل غير كافٍ وإنما لا بد أن يتطور لتنمية الشعور الوطني والتأكيد على الوحدة الملية والوطنية، وعلى مفهوم الأخوة الإسلامية ومفهوم "المواطنة " والمسؤولية المدنية والأخلاقية في مواجهة الاحتلال والنزعات الطائفية.

ومواجهة هذا التحدي تتطلب كذلك وجود حوار جدي وعميق مع قيادات من الطوائف الأخرى حول مستقبل العراق ما بعد الاحتلال، في محاولة للوصول إلى توافق وطني عام على طبيعة صوغ المجال السياسي بعيدا عن الاحتلال، من خلال التوافق والتراضي على حقوق الأقليات وعلى الحرية الدينية، والخصائص العامة لنظام الحكم المقترح. بمعنى آخر: تقديم البديل السياسي عن المشروع الأمريكي، وسيساهم هذا البديل في التقليل من المخاوف المتبادلة، والحد من التفكير الطائفي.

كما يستدعي الأمر كذلك بناء خطاب إعلامي سني يخاطب فئات المجتمع المختلفة، ويدفع عنها المخاوف والهواجس، ويعزز مفاهيم المشتركات الدينية والوطنية والاجتماعية، ويذكرها بالمسؤولية الدينية والتاريخية والوطنية بمقاومة الاحتلال، وبضرورة استلهام ثورة العشرين التي توحد فيها الدم العراقي – دون تفريق – في مواجهة الاحتلال البريطاني.

* الجهاد المدني السلمي:

لابد من توافق المقاومة المسلحة مع عمل سياسي إسلامي مدني، يوضح ويشرح أهداف العمل العسكري ويسنده، كما أنه يفتح المجال لبروز قوة سنية ذات أساس اجتماعي متين، لها رموزها وقياداتها، معروفة على المستوى الداخلي، وتنتقل إلى المستوى الإقليمي والدولي، لتؤكد على حق العراقيين في الدفاع عن النفس ومواجهة الاحتلال . ويمكن أن يكون مجلس الشورى لأهل السنة والجماعة نواة لهذا العمل السياسي المدني المشترك.

في هذا السياق من الضروري أن تساهم مؤسسات المجتمع المدني بشكل قوي في دعم أهداف العمل السياسي، عن طريق تعزيز

حضورها في المجتمع العراقي، وتوزيع مجالات وسياقات العمل السياسي بين عدة اتجاهات متكاملة: مؤسسات حقوق الإنسان، مراكز الأبحاث والدراسات، النقابات المهنية، الأندية الأدبية والثقافية، الجمعيات الخيرية والأهلية ..الخ .

ويمكن لعدة مؤسسات أهلية أن تقوم بدور رائد في هذا المجال، والاستدراك على الأمراض والمشكلات الاجتماعية ومعالجتها من خلال العمل الإسلامي الإصلاحي والدعوي، والذي لا يجب أن يغيب عن هذه المرحلة، بل هو الرصيد الكبير لها، إذ أنه يساهم في تقوية الدين وحضوره في المجتمع، وجعله رافدا رئيسا في بناء اليقظة الشعبية الدينية. ويشار في هذا السياق إلى دور المساجد والمجلات والكتب الدعوية في نشر الخطاب الإصلاحي في المجتمع.

كما يمكن أن تساهم مؤسسات المجتمع المدني من خلال التواصل مع المجتمع المدني العربي والعالمي في التعريف بالانتهاكات الأمريكية لحقوق الإنسان، وفي الدفاع عن قضية العراق العادلة، وحق الشعب في المقاومة وتقرير المصير، والحصول على الدعم العربي والإسلامي المطلوب، واختراق العزلة الجزئية البادية اليوم على المقاومة المسلحة العراقية من خلال الجهود الأمريكية لمنع وصول الدعم اللوجستي والسياسي إليها.

وهنا تقع مسؤولية كبرى على المجتمع المدني العربي والحركات الشعبية الفاعلة اليوم في ضرورة دعم المقاومة المسلحة، ومناصرة أهل السنة الذين يقومون بدور ريادي في مواجهة الاحتلال والحفاظ على وحدة الشعب العراقي.

الخلاصة

يبدو أهل السنة اليوم بمثابة الحالة المتقدمة في وعي المجتمع العراقي بطبيعة المرحلة ومصادر التهديد الخطيرة التي تحيق بهم، وطبيعة المشروع الصهيوني الذي يختبيء خلفه، وعلى الرغم من نجاح السنة في اختراق كثير من المخططات الأمريكية، وتحقيق انتصارات سياسية وتاريخية وعسكرية عميقة ومؤثرة، إلا أن الولايات المتحدة ما زالت تمسك بكثير من أدوات الصراع وأوراقه، وأبرزها الورقة الكردية، والتحالف مع الشيعة.

إن النموذج الأنسب للتعامل مع الاحتلال والحالة العراقية اليوم هو نموذج الاستراتيجية بعيدة المدى متعددة الأبعاد، والعمل السياسي طويل الأمد، ووضع الأهداف المرحلية والانتقال منها إلى أهداف أخرى وصولا إلى تحقيق الأهداف العليا المتمثلة في التحرير الكامل والوحدة والنهضة المطلوبة.

يبدو الاحتلال الأمريكي فرصة مناسبة اليوم ليكون مهمازا يدفع الوعي الإسلامي السني لحالة من الإبداع على المستوى السياسي والفكري والعسكري، وما ظهر إلى الآن من قبل المجتمع السني العراقي مبشر بمستقبل أفضل وبوعي عميق بطبيعة المرحلة وتحدياتها.